كتاب جدي

بقلم : محمد كرزون
سورية

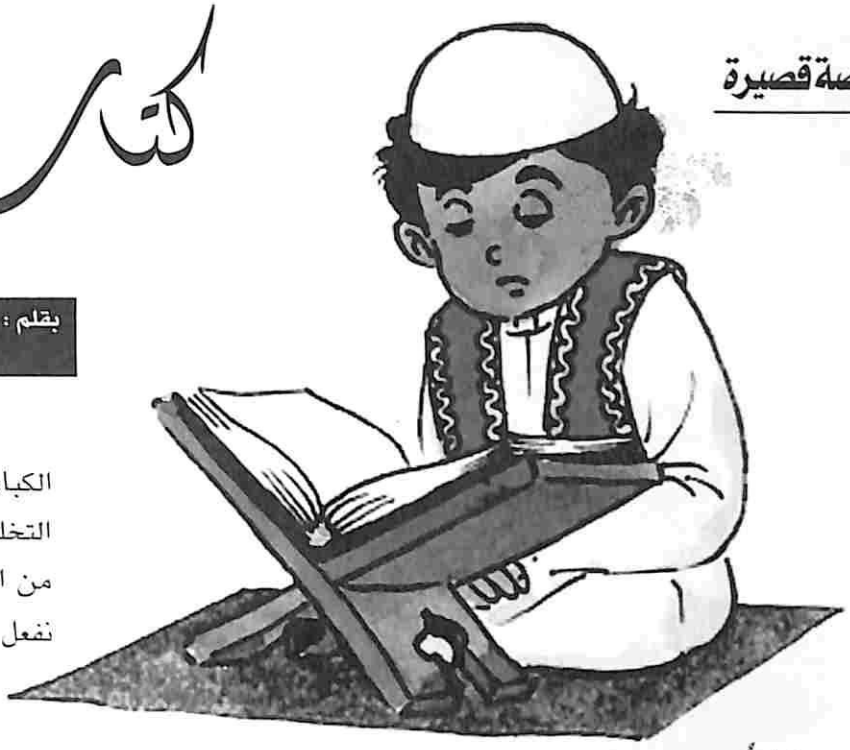

دخلتُ على جدي وفي يدي ورقة نجاحي إلى الصف الرابع الابتدائي، قبلتُ يده فقبّلني، سلّمته الورقة، فرح وقال لي بلهجة الوقور: الآن أصبحت رجلاً.. الآن بدأت تمشي في دروب العلم الحقيقي يا ولدي...

فرحت بعبارته كثيراً، أردتُ تذكيره من جديد بالكتاب، الذي يضعه على رفّ خاص في غرفته، والذي وعدني أن أقرأ منه عندما أتقدم في التعليم، ابتسم، وقال لي:

-هذا من حقك، وأنا عند وعدي ولكن؟!

قلت له:

- يا جدي أرحني من (لكنّ) هذه!... انظر إلى نتيجتي الرائعة، ألا أستحق أن تكرمني عليها؟!

أكبر هدية تقدمها لي أن أقرأ في كتابك يا جدي...

- ولماذا تريد القراءة في هذا الكتاب بالذات مع العلم أنّ بين يديك كتباً كثيرة متنوعة؟

- أتريد الحق؟

- ومتى أردت غيره يا ولدي؟!

- لأني كلما وجدتُك تقرأ منه شيئاً رأيتُ عليك علامات السرور والراحة، وأنا أريد أن أكسب شيئاً من الراحة والسرور، وأهرب قليلاً من هموم هذه الدنيا...

ضحك جدّي كثيراً على عبارة «هموم هذه الدنيا»، ثم رأيته يمسح وجهه بيده اليمنى، ويفكر... يفكر طويلاً...

عرفت لماذا يفكر جدي، لأنني قلت له عبارة يقولها الكبار فقط، أمي تمنعني من لفظها، لأنها عبارة أكثر من عمري بكثير، كما كانت تقول لي... هم يظنوننا لا هموم لنا نحن الصغار، ونحن نظن أن هموم الكبار من صنع أيديهم، يستطيعون التخلص منها متى شاؤوا... أليس من الهم أن لا نفعل ما نريد؟ أن لا نفعل إلا ما يعجبهم؟ أليس هذا هماً حقيقياً؟!

خرج جدي من تفكيره، ورفع يديه داعياً: اللهم خفف الهموم عن أمتي...

❖❖❖

قال جدي:

- تستطيع أن تقرأ الكتاب على مبدأ وشرط.

- أقبل بكل الشروط، وأسير على أي مبدأ تحدده لي...

- أما المبدأ، فهو أن تقبل تصحيحاتي لقراءتك مهما كانت كثيرة ومتتابعة، فلن أدعك تمرّ على غلط واحد دون أن أصححه لك...

- موافق يا جدي

- وأما الشرط، فهو واحد، أن تقف عند كل جملة تعجبك، وتعيد قراءتها ثلاث مرات، لتشعرني أنك تفهم ما تقرأ...

- بكل سرور يا جدّي!

- كل ذلك بدون أي نزق أو انفعال...

- تماماً يا جدي!

- إذن، على بركة الله يا ولدي... غداً، بعد صلاة الجمعة، نجلس معاً ونقرأ ما شاء الله لنا أن نقرأ.

❖❖❖

لم يشأ جدي أن أقرأ الكتاب دون بعض الطلبات الخاصة، فقد طلب مني أن ألبس أفضل ما عندي من الثياب، وعطرني بعطره الخاص، وعلمني كيف أجلس على الأرض - متربعاً - عند القراءة... وإن أردت أن أغير من جلستي فلابد أن أثني ركبتيَّ أو إحداهما، ونصحني أن لا أكثر من الحركات عندما أقرأ، كي يبقى ذهني مفتوحاً...

شعرتُ أني في عالم جديد وأنا أشم رائحة عطر جدي أينما تلفتُّ... أحسستُ أن دنيا جديدة تفتح لي أبوابها.. قلتُ في البداية: إنها مدرسة، ولكني وجدتها أكبر...

أمسكت بالكتاب، وضعتُه على الأرض، وصوبتُ نظري من فوقه... مد جدي يديه، وأخذه مني برفق، وقال لي: لِمَ لا تُجلس الكتاب مجلسه؟

ثم أتى بكرسي القراءة، وبسطه، بعد أن كان مطوياً، ووضعه أمامي...

عندما أقرأ أمام معلمي في المدرسة ينتابني شعور بالخوف، لا أعرف من أي شيء أخاف... أمّا الآن أمام جدي فأشعر بأنني بطل، جدي يحب الأبطال الذين لا يترددون... وأنا لن أتردد...

❖❖❖

كان جدي، في البداية، مسروراً من قراءتي، وعندما وجد أغلاطي تكثر مدّ يده إلى الكتاب وأغلقه، وقال لي: يكفي ما قرأناه اليوم...

ثم بسط جسده على الحصير، فلابد من قيلولة في يوم حار.

❖❖❖

مرّ شهران من الصيف وأنا أقرأ في كل يوم بضع صفحات من كتاب جدي، أغلاطي تقلّ، صوتي يتحسن، فهمي يتسع... وحبي للقراءة يزداد بشكل كبير..

كان أبي يراني مع جدي وأنا أقرأ، فينظر إلينا بصمت، والبسمة مرسومة على شفتيه، مرة أو مرتين جلس معنا، بصمت واحترام، وحاول أن يتدخل لتصحيح غلط بدر مني، ثم لم يفعل لأن جدي وضع سبابته على فمه مشيراً إليه بالسكوت.

أبي، في صغره، قرأ من الكتاب أمام جدي، وكل أعمامي قرؤوا منه، وعمّاتي أيضاً... وهم يتحدثون عن صبر جدي عليهم، وفرحه بهم.

لا أعرف لماذا يتصرف والدي معنا- نحن أولاده - ومع أمي وكأنه لم يقرأ منه شيئاً... لا أدري أين صارت أفكار الكتاب... على الأغلب غادرت رأسه، وحل مكانها حسابات وأرقام وهموم... وسلة كبيرة من المعاتبات والملاحظات على الناس جميعاً، ومن بينهم إخوته وأحب الناس إليه...

لم أستطع أن أخبئ عن جدي فكرتي:

- يا جدي، لماذا نسي أبي وأعمامي أفكار الكتاب وحكمه؟

- سؤالك كبير يا ولدي... كبير... والدك لم ينس شيئاً، ولا أعمامك، فهذا الكتاب لا يُنسى... ولكن بعض الناس يظن أن ما في الحياة شيء، وما في الكتب شيء آخر... وكل من يعاملهم أبوك بالمال والمتاع يظنون ذلك... الناس يا ولدي يظنون أنهم يستطيعون أن يستعجلوا الخير بأيديهم.

وصمت جدي... طال صمته، ثم قال: اترك لنفسك سؤالاً للمستقبل تكتشفه بنفسك... هل تريد من جدّك أن يجيبك عن كل الأسئلة؟ كثير عليّ ذلك...

أبناء أعمامي وعماتي أصابتهم الغيرة مني، جدي لا يعطيني دراهم، ولا سكاكر... جدي يسمعني، ومع ذلك فأنا محسود!

دعوتهم للقراءة والاستماع، بعضهم وافق، وبعضهم ينتظر موافقة والديه...

صرنا أربعة أولاد نقرأ، وأنا أقدمهم في القراءة، ولست أكبرهم... علمنا جدي كيف يكون السكوت جميلاً، وكيف يكون الاستماع جميلاً، وكيف تكون القراءة متعة رائعة...

❖❖❖

رأى أبي اهتمامي بالكتاب، ازداد حبه لي، صار يُجلسني قربه، بل يلصقني به وهو يضع يده اليمنى على كتفي كي يجذبني إليه أكثر، ويسألني عن الكتاب... وعن جدي... ولكن، مع أول نداء من أمي، أو مع أي طارق للباب... يبتعد عني، وعندما يعود إلي

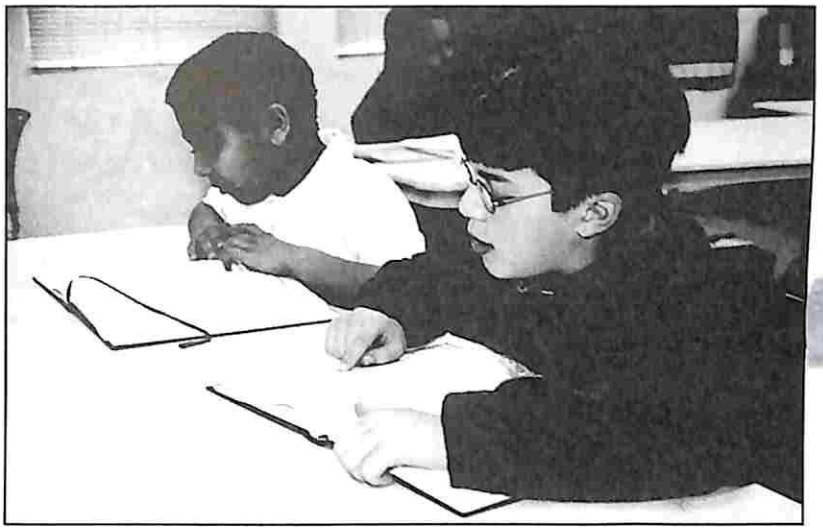

ينسى ما كان يسألني عنه...

مرة سألني والدي:

- كيف حال صديقك الكتاب؟

- لم أر أروع منه صديقاً!

- ولن ترى يا بني!

- أبـي... أريـد أن تشتري لي كراسة كي أنقله بخط يدي.

- وبإشراف جدتك، على شرط أن لا تستعجل، قد تستغرق في نقله سنتين أو أكثر، ولكن المهم أن تنقله بعناية وبخط جميل، ودون أغلاط.

ثم سكت والـدي، وراح يتأمل، وكأنه يتذكر كيف كانت صداقته مع هذا الكتاب عندما كان صغيراً، ثم تنفس تنفساً عميقاً، وقال لي:

- عمّك المغترب نسخ هذا الكتاب ذات يوم.

- بالتأكيد استمر أكثر من سنة!

- لا، بل ساعة...

- ساعة؟! كيف؟

- في البداية سمح له جدك أن يأخذه معه إلى مغتربه، ولكنه لم يرغب في ذلك... قال لجدك: هذا الكتاب يجب أن لا يغادر بيتنا. في إجازته التالية أحضر عمك معه جهازاً صغيراً، وصور الكتاب كاملاً، وبعد عام أحضر معه مجلداً هو صورة عن الكتاب تماماً...وصار يصحبه معه أينما حلّ... قال لي أخي: لم أر أحسن من هذا الكتاب صديقاً في غربتي.

صارت عندي رغبة في رؤية ذلك المجلد، وهذا آخر الصيف، موعد زيارة عمي لأبيه وأهله... أول ما سعيت إليه أن أخبرت عمي أنني أقرأ أمام جدي بعض صفحات الكتاب... ثم جمعت شجاعتي وطلبتُ منه أن يريني الصورة التي عنده.

رحب عمي، أمسكت المجلد، فتحته: الخط نفسه... الألوان نفسها... حتى تجاعيد الورق نفسها... أشياء قليلة اختلفت: الورق هنا أمتن، والرائحة... رائحة كتاب جدي لا تشبهها رائحة... الأصابع التي قلبت صفحات كتاب جدي ما تزال آثارها وروائحها... وهذا غير موجود في مجلد عمي.

ضحك عمي عندما رآني أقرب مجلده من أنفي، وقال لي: هذه التي تنقصنا في الغربة... رائحة الأهل والديار.

عمي كانت أخلاقه أقرب إلى ما في الكتاب من حكم... يبدو لي أن عمي لو عاش بيننا لكان أقرب الناس شبهاً بجدي... هل غربته جعلته يختلف عن بقية إخوته؟! هل يفهمه الناس في غربته على حقيقته؟! هل الناس في البلاد الغريبة عندهم أجداد كجدي؟! في الصيف القادم سأسأل عمي كل هذه الأسئلة وأكثر.

❖❖❖

انتهت عطلة الصيف، وأنا سعيد لأنني قرأت أكثر من ثلاثين صفحة من كتاب جدي... وكتبتها أيضاً... وجدي فرحان لأن أربعة من أحفاده التفوا حوله لقراءة الكتاب، جدي قال لي: تقدمك في مدرستك يعني أنك استفدت من قراءة الكتاب.

وفي ساعة من ساعات الهدوء تسللت إلى نفس جدي فحسبتُه يتساءل: ماذا لو كنتُ أعطيت أولادي ما أعطيه لأحفادي اليوم؟ اللهم سامحني فما قصدت في تربيتهم إلا الخير، ولكن كانت تشغلني عنهم مشاغل الدنيا وهموم المال... مددت يدي إلى وجه جدي، مسحت دموعه الصامتة، قبلتُه من جبهته ووجنته ويديه، ثم وضعت رأسي في حضنه، ولم أتكلم أي كلمة... وغفوتُ... ولم أستطع مقاومة الأحلام ■